
ISSN: 2959-2224 (Online) and 2959-2216 (Print)

Open Access: <https://journals.iub.edu.pk/index.php/uas/index>

Published by: Department of Hadith, The Islamia University of Bahawalpur, Pakistan.

أدلة الكتابة في العهد النبوي: دراسة استقرائية تحليلية

Evidence of Writing in the Prophetic Era: An Inductive-Analytical Study

Dr. Faraz Ul Haq*

Assistant Professor, Department of Essential Studies, NED University of Engineering & Technology, Karachi, Pakistan. ORCID ID: <https://orcid.org/0000-0002-5734-2795>

*Email of corresponding author: drfarazulhaq@gmail.com.

Dr. Hafiz Muhammad Yunus

Visiting Faculty, NED University of Engineering & Technology, Karachi, Pakistan. ORCID ID: <https://orcid.org/0009-0000-9820-1676>. *Email: hafizyunusasri@gmail.com

Received: 24/9/2026

Peer-reviewed: 12/10/2026

Accepted: 16/10/2026

Published online: 18/10/2026

Article Link: <https://journals.iub.edu.pk/index.php/uas/article/view/4990>

Abstract:

This study examines the evidence of written documentation during the Prophetic era, with particular attention to its presence and diverse applications in early Islamic society. Using an inductive-analytical approach, the study systematically surveys primary historical sources to classify the various uses of writing under the Prophet's ﷺ guidance, including judicial rulings and legal verdicts (qada), peace treaties and tribal pacts (sulh), diplomatic correspondence with foreign rulers, and administrative documents such as property grants, tax instructions, and census records. By synthesizing these records, the study establishes that writing was a recognized and functional means of documentation in the Prophetic era, serving legal, diplomatic, and administrative purposes. This evidence further indicates that writing contributed to the preservation and transmission of Prophetic guidance, providing historical evidence for the written preservation of the Sunnah during his lifetime.

Keywords: Evidence, Writing, Hadith, Prophet

التمهيد

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، والصلاة والسلام على الرسول المهداة، أفضل من خلق الله من الأنبياء والمرسلين وسائر الخلق أجمعين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد.

فقد التصقت في الأزمنة المتأخرة مفاهيم خاطئة بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، مرجع ذلك التشكيك في حفظ السنة وتدوينها، ومن أشهر تلك الشبهة التي أثارها المستشرقون وتلقاها عنهم بعض المسلمين أن السنة لم تُكتب في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وأن الكتابة لم تكن معروفة في ذلك الوقت؛ وعليه فما لم يُحفظ كتابة لا يمكن الجزم بصحته وعدم تغييره، وزعموا وجود فجوات وحلقات فراغ في نقل الأحاديث النبوية، واتخذوا من تأخر التدوين الرسمي للحديث ذريعة للطعن في صحة الأحاديث، والقول بتعرضها للزيادة والنقصان.

ومن أبرز من أثار هذه الشبهة المستشرق إغناطس جولدتسيهر (Ignaz Goldziher) الذي شكك في ثبوت الصحف الحديثية المبكرة في العصر النبوي وعصر الصحابة، زاعماً أن معظم السنة مختلفة، وأن المدونين لم يجمعوا إلا ما وافق اتجاهاتهم¹.

ووافقه في أصل هذه الشبهة آخرون؛ كالمستشرق الهولندي راينهاردت دوزي (Reinhart Dozy) الذي أنكر نسبة قسماً كبيراً مما أسماه "التركة المجهولة" من الأحاديث إلى النبي ﷺ².

على أن صحة المنقول وتوثيقه لا يتوقفان بالضرورة على كونه مكتوباً؛ فالكتابة وسيلة من وسائل الحفظ والتوثيق، وليست الوسيلة الوحيدة، إذ عُرفت في نقل المعارف والأخبار وسائل متعددة، من أبرزها الحفظ والرواية والمشافهة.

وعليه، فإن تأخر التدوين الرسمي لا يستلزم عدم صحة ما كان متداولاً في ذلك الوقت، وإنما العبرة بمجموع وسائل الحفظ والنقل وشواهد التوثيق.

وقد تنوعت هذه الوسائل في العهد النبوي، فإلى جانب الحفظ والرواية، كانت الكتابة حاضرة في مجالات متعددة من الحياة العلمية والقضائية والإدارية والدبلوماسية، وهو ما تشهد به جملة من الوثائق والكتب والمراسلات الثابتة في المصادر.

ومن هنا يسعى هذا البحث إلى استقراء الأدلة والشواهد المتعلقة بالكتابة في العهد النبوي، وتصنيف مجالاتها وتحليل دلالاتها، ثم بيان صلتها بكتابة الحديث النبوي وحفظ السنة، بما يبرز أن الكتابة كانت من الوسائل التي أسهمت في حفظ السنة ونقلها منذ العهد النبوي.

الدراسات السابقة والإضافة العلمية:

فقد وقفتُ على عددٍ من الكتابات التي تناولت هذا الموضوع، وتبين بعد النظر فيها أن الدراسات ذات الصلة يمكن تصنيفها في نوعين:

¹ إغناطس جولدتسيهر، دراسات إسلامية، ترجمة وتحقيق: علي حسن عبد القادر (القاهرة: مطبعة الاعتماد، 1944م)، ج 2، ص 25 وما بعدها.

² Reinhart Dozy, *Het Islamisme* (Haarlem: A. C. Kruseman, 1863), 82–95.

الأول: الكتب والمؤلفات العامة: وهي الكتب التي تناولت تدوين السنة النبوية وتاريخها، وتطرقت ضمن مباحثها إلى قضية الكتابة في العهد النبوي، وإلى بدايات التدوين وأنواع التصنيف الحديثي، دون أن يكون إثبات الكتابة في مختلف المجالات هو موضوعها الرئيس.

الثاني: الدراسات الخاصة بكتابة السنة النبوية، ومن أبرزها:

1. كتابة السنة النبوية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة وأثرها في حفظ السنة النبوية، للدكتور أحمد عمر هاشم، نشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.
 2. كتابة الحديث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بين النهي والإذن للشيخ ناصر بن إبراهيم العبودي، نشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.
 3. مقال: نهضة الكتابة في العصر النبوي وصدر الإسلام بقلم الأستاذ محمد عبده الهنداوي، منشور على موقع جامعة دار العلوم بديوبند، الهند.
- وبالنظر في هذه الدراسات، يظهر أن عنايتها انصرفت بصورة أساسية إلى كتابة السنة النبوية والحديث الشريف، من حيث إثبات كتابة الحديث في العهد النبوي، وبيان المواقف الواردة في النهي عنها والإذن بها، وبيان أثرها في حفظ السنة وتدوينها.
- أما بحثي، فينطلق من زاوية أوسع؛ إذ لا يقف عند كتابة السنة النبوية بما يتعلق بالأحكام والمسائل والمواظع والحكم فحسب، وإنما يتجه إلى إبراز ظاهرة الكتابة وثقافتها في العهد النبوي في مختلف المجالات، والكشف عن مظاهر حضور الكتابة في الحياة العلمية والإدارية والاجتماعية وغيرها، وبيان الشواهد التي تدل على انتشارها واستعمالها في ذلك العصر.
- ومن هنا تتمثل الإضافة العلمية للدراسة في جمع هذه الشواهد المتفرقة، وتصنيفها، وتحليلها؛ للوصول إلى صورة أشمل عن واقع الكتابة في العهد النبوي.

خطة البحث

وقد رتبت هذا البحث في تمهيد، ومبحثين، وخاتمة:

فالتمهيد في المقدمة لهذا الموضوع بذكر أهميته، وذكر الدراسات السابقة، وأسباب اختيار الموضوع.

والمبحث الأول: الكتابة في العصر النبوي، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تأريخ الكتابة في العرب، وأشهر من عُرف بها.

المطلب الثاني: الصحابة الذين عرفوا بالكتابة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثاني: نماذج من الكتابات المتنوعة في العهد النبوي.

الخاتمة: وفيها ذكر نتائج البحث التي توصلت إليها.

المبحث الأول: الكتابة في العصر النبوي،

المطلب الأول: تأريخ الكتابة في العرب، وأشهر من عُرف بها.

تُعَدُّ الكتابة من أهم الوسائل التي عرفها الإنسان لحفظ المعارف وتوثيق الأخبار ونقل العلوم، وكان لها أثرٌ بارز في حفظ تراث الأمم واستمرار معارفها وانتقالها من جيل إلى آخر. غير أن حفظ المعلومات وتوثيقها لم يكن مقصوراً على الكتابة، فقد اعتمدت الأمم كذلك على الحفظ والرواية والمشافهة، وكانت هذه الوسائل متفاوتةً في قوتها باختلاف أحوال الأمم وطرق نقلها وضبطها.

ومن ثم فإن دراسة تاريخ الكتابة لا تعني إغفال دور الحفظ والرواية الشفهية، وإنما تهدف إلى بيان نشأة الكتابة وتطور استعمالها، ولا سيما عند العرب، ومقدار ما كان لها من حضور في حياتهم قبل الإسلام وفي العهد النبوي.

وقد اشتهر العرب في الجاهلية وصدر الإسلام بظاهرة 'الرواية الشفهية'، حيث بلغت الذاكرة العربية ذروتها في القوة والاتساع³ وكان سوق عكاظ ميداناً لإلقاء القصائد وحفظها من السماع الأول، ومحفلاً للنقد الأدبي القائم على البديهة والمملكة اللغوية، كما هو ثابت في قصة تحكيم النابغة الذبياني بين الشعراء⁴.

ويتضح هذا الأمر أكثر لمن درس أحوال العرب الفكرية ولذا جاء في وصف هذه الأمة: "أناجيلهم في صدورهم"⁵؛ أي: صحفها صدورهم.

وحين ظهر الإسلام كانت الكتابة قليلة بين العرب، فكان الكتاب في مدن الجزيرة العربية آنذاك أفراداً معدودين، قال البلاذري وهو يتحدث عن الكتابة في مكة: (دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب)، وقال عن الكتابة في يثرب: (إن الإسلام جاء وفهم عدة يكتبون)، وذكر منهم أحد عشر كاتباً⁶. ومع ذلك، لا يمكن الجزم بدقة هذه الإحصائية على وجه القطع؛ إذ كانت مكة مركزاً دينياً وتجاريّاً مهمّاً، مما يُرجّح وجود عدد أكبر من المتعلمين فيها. غير أن الظاهر أن التعلّم في ذلك العصر لم يكن منحصراً في القراءة والكتابة، بل كان يعتمد على نحو يشبه طرائق المتقدمين. على التلقي المباشر، والاستفادة من تجارب الناس، وممارسة شؤون الحياة، وغيرها من أوجه اكتساب المعرفة والخبرة التي لا تتوقف على معرفة القراءة والكتابة.

فكان الناس يعتمدون على صدورهم في حفظ أنسابهم ومفاخرهم وأشعارهم وما لهم من الإرث والثقافة، والكتاب الذين سماهم البلاذري هم: عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، وَطَلْحَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَأَبُو حَذِيفَةَ بْنُ عَتَبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَحَاطِبُ بْنُ عَمْرٍو أَخُو سَهِيلِ بْنِ عَمْرِو الْعَامِرِيِّ عَنْ قُرَيْشٍ، وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ الْمُخَزَمِيِّ، وَأَبَانُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِيِّ بْنِ أُمَيَّةَ، وَخَالِدُ بْنُ سَعِيدِ أَخُوهُ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ الْعَامِرِيِّ، وَحَوِيطُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيِّ الْعَامِرِيِّ وَأَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ، وَمَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ، وَجَهْمُ بْنُ الصَّلْتِ بْنِ مَخْرَمَةَ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَمِنْ حُلَفَاءِ قُرَيْشِ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ⁷.

المطلب الثاني: الصحابة الذين عُرفوا بالكتابة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم

لم تكن الكتابة شائعة في الجزيرة العربية، لكنها شهدت نهضة ملحوظة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم حتى انتشرت انتشاراً واسعاً في المجتمع الإسلامي وكيف لا يكون ذلك، والقرآن الكريم افتتح دعوته

³ الجاحظ، عمرو بن بحر. الحيوان. الطبعة الثانية. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤ هـ [٢٠٠٣ م]. 36/1.

⁴ الجمحي، محمد بن سلام. طبقات فحول الشعراء. تحقيق محمود محمد شاكر. جدة: دار المدني، ١٩٧٤، 15/1.

⁵ الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري). تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي. 26 مجلدًا. الجيزة: دار هجر، 2001. (452/10).

⁶ البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري (ت 279 هـ) فتوح البلدان. بيروت: دار مكتبة الهلال، 1988 ص 453.

⁷ فتوح البلدان ص 453.

بالحض على القراءة والتعلُّم، في قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (العلق: 1-5). والكتابة وسيلة من وسائل المعرفة والنقل.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحثُّ أصحابه على الحفظ، فقد قال: "نَضَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ..."⁸، وكان يرغب في التبليغ عنه ولو آية، فمن هنا كان اهتمامهم الطبيعي هو في تلقي الأحاديث من فمه الشريف والنظر إلى أفعاله ثم نقلها إلى الآخرين.

واقتضت طبيعة الرسالة الإسلامية تنامي أعداد المتعلمين من قارئین وکاتبین؛ إذ إن الوحي يحتاج إلى من يكتبه ويضبطه، كما أن شؤون الدولة الناشئة من مراسلاتٍ وعهودٍ ومواريثٍ ومعاملاتٍ تتطلب وجود كُتَّابٍ مهرة.

ولا ريب أن حفظ السنة أيسر وأسهل من حفظ الأنساب التي برع فيها العرب براعة فائقة لا مثيل لها.⁹

وقد اختلف المؤرخون في عدد وأسماء كُتَّاب النبي صلى الله عليه وسلم، ويرجع جانبٌ من هذا الاختلاف إلى اختلاف مناهجهم في تحديد مفهوم «الكاتب»؛ فمنهم من اقتصر على من لزم الكتابة للنبي صلى الله عليه وسلم، وطالت مباشرته لها، ومنهم من أدرج مَنْ كَتَبَ لَهُ في بعض المناسبات والوقائع، ولذلك تفاوتت قوائمهم في العدد والأسماء.

فقد ذكر البلاذري أحد عشر كاتبًا من كُتَّاب النبي صلى الله عليه وسلم، وهم: أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن سعيد بن أبي سرح، وعثمان بن عفان، وشرحبيل بن حسنة، وجُهم بن الصلت، وخالد بن سعيد، وأبان بن سعيد، والعلاء بن الحضرمي، ومعاوية بن أبي سفيان، وحنظلة بن الربيع رضي الله عنهم أجمعين.¹⁰

أما الطبري فذكر عشرةً من كُتَّابه صلى الله عليه وسلم، فأثبت فيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولم يذكر في قائمته شرحبيل بن حسنة وجُهم بن الصلت، فجاءت قائمته مختلفة عن قائمة البلاذري في بعض الأسماء.¹¹

وأما المسعودي فقد وسَّع دائرة الأسماء التي أوردها، فذكر ستة عشر كاتبًا، وأضاف إلى ما سبق أسماء: المغيرة بن شعبة، والحصين بن نصيرة، وعبد الله بن الأرقم، والعلاء بن عقبة، والزيبر بن العوام، وحذيفة بن اليمان، ومعيقب الدوسي رضي الله عنهم. ولم يكن هذا التوسع عنده عشوائيًا، بل صرَّح بالمعيار الذي اعتمده في اختيار من أطلق عليهم وصف «كُتَّاب النبي صلى الله عليه وسلم»، فقال: «إنما ذكرنا من أسماء كُتَّابه صلى الله عليه وسلم من ثبت على كتابته، واتصلت أيامه فيها وطالت مدته، وصحت الرواية على

⁸ ابن حنبل، الإمام أحمد. المسند. تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين. بيروت: مؤسسة الرسالة، 2001 (221/7)، رقم: (4157). الترمذي، محمد بن عيسى. الجامع الكبير (سنن الترمذي). تحقيق بشار عواد معروف. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998. (393/4)، رقم: (2656).

⁹ ينظر: المقدمة، أبو الحسن علي بن زيد البيهقي (ابن فندق)، لباب الأنساب والألقاب والأعقاب، تحقيق مهدي الرجائي، 1410هـ. ¹⁰ فتوح البلدان للبلاذري ص 66.

¹¹ تاريخ الأمم والملوك للطبري 2/ 421.

ذلك من أمره، دون من كتب الكتاب أو الكتابين والثلاثة؛ إذ كان لا يستحق بذلك أن يسمى كاتبًا ويضاف إلى جملة كتّابه»¹².

ثم جاء ابن عبد البر فذكر ثلاثة وعشرين كاتبًا، وهي قائمة أوسع من القوائم السابقة؛ إذ أضاف إلى الأسماء المتقدمة: أبا بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعبد الله بن رواحة، ومحمد بن مسلمة، وعبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول، وعمرو بن العاص رضي الله عنهم أجمعين.¹³ ثم ازداد هذا العدد في بعض المؤلفات اللاحقة؛ فقد ذكر الديار بكري أربعة وثلاثين كاتبًا، مستوعبًا في قائمته الأسماء التي سبقه إليها البلاذري والطبري والمسعودي وابن عبد البر، وأضاف إليها: طلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، والأرقم بن أبي الأرقم، وعبد الله بن زيد بن عبد ربه، وسعيد بن العاص، وحويطب بن عبد العزى العامري، وأبا سلمة بن عبد الأسد، وحاطب بن عمرو بن حنظلة رضي الله عنهم أجمعين. ثم نقل قولاً يفيد أن عدد كتّاب النبي صلى الله عليه وسلم بلغ أكثر من ذلك، فقال: «قيل: إن كتّابه نيف وأربعون، وأكثرهم ملازمة له زيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان بعد الفتح»¹⁴ كما أوصلهم العراقي إلى اثنين وأربعين كاتبًا¹⁵.

فالعدد التقريبي لكتابة الوحي والمراسلات للنبي ﷺ يتراوح ما بين ستة وعشرين وثلاثة وأربعين كاتبًا، وهذا التدرج في أعداد الكتّاب، من أحد عشر عند البلاذري، وعشرة عند الطبري، وستة عشر عند المسعودي، ثم ثلاثة وعشرين عند ابن عبد البر، وأربعة وثلاثين عند الديار بكري، حتى اثنين وأربعين عند العراقي، يدل بوضوح على أن الخلاف في العدد يرجع بدرجة كبيرة إلى اختلاف المعايير التي اعتمدها المؤرخون في عيّ الكتاب وإطلاق هذا الوصف عليهم، ولا يلزم منه وجود تعارض بين رواياتهم، فالمسعودي مثلاً، نصّ على أنه لا يعدُّ من كتّاب النبي صلى الله عليه وسلم إلا من ثبتت ملازمته للكتابة وطالت مدته فيها، بينما يبدو أن غيره أدخل في عدادهم من شارك في الكتابة ولو في مناسبات محدودة.

ومن الملاحظ على هذه القوائم أيضاً أن تعدد أسماء الكتّاب وتنوعهم يؤكد أن الكتابة في العهد النبوي لم تكن وظيفة محصورة في شخص أو اثنين، ولا كانت مرتبطة بمجال واحد فحسب، بل شارك فيها عدد من الصحابة رضي الله عنهم بحسب ما تقتضيه حاجات الدولة والمجتمع. ومن ثم لا ينبغي أن يُحصر البحث في «كتّاب الوحي» وحدهم؛ لأن الروايات تشير إلى وجود من تولى الكتابة في المراسلات، والصدقات والزكوات، والمعاملات، والمدائنات، والمغانم، والشؤون الإدارية وغيرها.

وعليه، فإن دراسة أسماء الكتّاب ومجالات عملهم تفتح باباً مهماً لفهم واقع الكتابة وثقافتها في المجتمع النبوي؛ إذ تكشف عن تعدد وظائفها واتساع دائرة استخدامها، وأنها لم تكن وسيلة طارئة أو مقتصرة على كتابة القرآن أو الرسائل، وإنما كانت أداة من أدوات تنظيم شؤون المجتمع المسلم وتوثيق

¹² المسعودي، علي بن الحسين. التنبيه والإشراف. بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1981، ص 245.

¹³ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبد الله التركي، ط 1 (الجزء: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، 1440هـ/2019م) 14/1.

¹⁴ القلمساني، محمد بن أبي بكر (ابن الشيخ). تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس بيروت: دار صادر. 181/2 - 182

¹⁵ الكتاني، عبد العلي. التراتيب الإدارية. تحقيق عبد الله الخالدي. مجلدان. بيروت: دار الأرقم. 115/1.

حقوقه وعلاقاته، وهو ما يعزز القول بوجود حضور معتبر للكتابة في جوانب متعددة من الحياة في العهد النبوي¹⁶.

ومع انتشار الكتابة بينهم إلا أنه بقي الأمر على حفظ المحفوظ والمقروء سائداً عندهم، والعرب قد خصت بالحفظ، وكان بعضهم يحفظ أشعار بعض في دفعة واحدة، فهذا ابن عباس رضي الله عنهما يحفظ في سمعة واحدة قصيدة عمر بن أبي ربيعة التي مطلعها:

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبَكِّرٌ¹⁷

وها هو ذا قتادة (ت118هـ) يقول: "ما سمعتُ أذناي شيئاً قط إلا وعاه قلبي"¹⁸. وهذا ابن شهاب الزهري (ت124هـ) يقول: "إني لأمرُ بالبقيع فأُسدُّ أذاني مخافة أن يدخل فيها شيء من الحنا، فوالله ما دخل أذني شيء قط فنسيته"¹⁹.

المبحث الثاني: نماذج من الكتابات المتنوعة في العهد النبوي

لم تقتصر الكتابة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم على نوع واحد، بل تنوعت بتنوع حاجات المجتمع وشؤونه، فشملت كتابة تفاصيل الصدقات، والرسائل إلى الملوك، والعهد بين القبائل، والمعاملات، والمداينات، وغيرها.

وقد حفظت كتب الحديث والتاريخ نماذج متعددة من هذه الكتابات، تكشف عن تنوع مجالات استعمالها في العهد النبوي، وهذا الجمع هو مقصودي الأساس من هذا البحث، وفيما يأتي جملة من هذه النماذج:

1- أول قائمة مكتوبة بأسماء المسلمين:

روى حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: اكتبوا لي من تَلَفَّظَ بالإسلام، فَكَتَبْنَا لَهُ أَلْفًا وَخَمْسَ مِئَةِ رَجُلٍ، فَقُلْنَا: نَخَافُ وَنَحْنُ أَلْفٌ وَخَمْسُ مِئَةٍ؟ فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا ابْتُلِينَا، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لِيُصَلِّيَ وَحْدَهُ وَهُوَ خَائِفٌ²⁰.

¹⁶ ينظر: الأنصاري، محمد بن علي بن أحمد (ابن حديدة) (ت 783هـ) مصباح المضي في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي. تحقيق محمد عظيم الدين. مجلدان. بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٥ هـ (139/1).

¹⁷ أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، الأمالي (ومعه: شذور الأمالي والنوادر)، وضعها وترتيبها: محمد عبد الجواد الأصمعي، ط 2 (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1344هـ/1926م)، (2/39).

¹⁸ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (القاهرة: مطبعة السعادة، 1394هـ/1974م)، (334/2).

¹⁹ أبو عمر يوسف بن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق أبو الأشبال الزهيري، ط 1 (الدمام: دار ابن الجوزي، 1414هـ/1994م)، (294/1).

²⁰ البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري. تحقيق جماعة من العلماء، عناية محمد زهير الناصر. بيروت: دار طوق النجاة، ٢٠٠١. كتاب الجهاد والسير- باب كتابة الإمام الناس (الفتح 6/206 ح 3060) والحديث أخرجه البخاري في صحيحه عن عبيد بن أبي حمزة عن الأعمش به.

وقد اختلفت الروايات في عدد الذين كتبت أسماءهم في ذلك الوقت؛ فروى الثوري عن الأعمش أنهم كانوا ألفاً وخمسائة، وروى أبو معاوية أنهم كانوا ما بين ستمائة وسبعمائة، وروى أبو حمزة أنهم كانوا خمسمائة، وكلهم يروون ذلك عن الأعمش. وقد ذكر بعض الشراح أوجهاً للجمع بين هذه الروايات، إلا أن الحافظ ابن حجر استبعد هذه الأوجه؛ لاتحاد مخرج الروايات، إذ مدارها جميعاً على الأعمش، مع اختلاف أصحابه عنه في تحديد العدد. ورجح ابن حجر أن الإمام البخاري اعتمد رواية الثوري؛ لأن الثوري كان أحفظ أصحاب الأعمش مطلقاً، وفي روايته زيادة مع الجزم بالعدد، بخلاف رواية أبي معاوية، فإنه لم يجزم به،

أدلة الكتابة في العهد النبوي: دراسة استقرائية تحليلية

وقد بَوَّب البخاري رحمه الله على هذا الحديث بباب: (كِتَابَةُ الْإِمَامِ النَّاسِ). وقال المُهَلَّب: فيه أَنَّ كِتَابَةَ الْإِمَامِ النَّاسِ سُنَّةٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عند الحاجة إلى الدَّفْع عن المسلمين. وذكر ابن حجر أن الحديث فيه مشروعية كتابة دواوين الجيوش، وقد يتعين ذلك عند الاحتياج إلى تمييز من يصلح للمقاتلة بمن لا يصلح، ثم ذكر أن الحديث مشعر أنه كان من عادتهم كتابة من يتعين للخروج في الغزوات.²¹

2- السَّجَلَاتُ المالية

لم تكن إدارة الشؤون المالية في العهد النبوي قائمة على العفوية أو التقديرات العشوائية، بل شهدت البدايات الأولى للإدارة الإسلامية وتنظيم الدواوين المالية: حيث اعتمد النبي ﷺ منهج التدوين والضبط المحاسبي لحفظ الحقوق وضبط الموارد.

وفي هذا السياق، كان للصدقات سجلّ مكتوب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فقد ذكر ابن حزم في كتاب (جوامع السيرة): وكان كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصدقات الزبير بن العوام رضي الله تبارك وتعالى عنه، فإن غاب أو اعتذر كَتَبَ جَهْم بن الصَّلْت، وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما²².

وذكر القُضاعي أن الزبير بن العوام، وجهم بن الصَّلْت -رضي الله عنهما- كانا يكتبان للنبي صلى الله عليه وسلم أموال الصدقات، وأن حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- كان يكتب له خَرْصَ النَّخْل وثمرَ الحِجَاز²³.

3- الأحكام القضائية

حظيت حياة النبي صلى الله عليه وسلم بمختلف جوانبها، التشريعية والخاصة وغيرها، بعناية كبيرة من لدن العلماء؛ فأفرد بعضهم لها مصنفاتٍ جامعة استوعبت معظم جوانب السيرة النبوية، بينما تناول آخرون جانباً معيناً من حياته صلى الله عليه وسلم في مصنفات مستقلة، تفاوتت في حجمها بين المختصر والمتوسط والمطول.

وقد اهتم العلماء بجمع وتدوين أحكام النبي ﷺ وقضاياه؛ حيث جَمَعَ العلامة أبو عبد الله محمد بن فرج ابن الطَّلَاح القرطبي المالكي الأندلسي (ت497هـ)، في كتابه: أفضية رسول الله ﷺ زهاء ثمانين حكماً وقضاءً نبوياً، ثم استخرج الفقهاء والمحدثون بعده أكثر من خمسمائة حكم وقضاء نبوي شَمِلَت أبواب الشريعة المختلفة؛ كالأحوال الشخصية، والمعاملات المالية، والأنكحة، والمواريث، والجهاد، والحدود، وتنظيم القضاء.

وإنما قال: «ما بين الستمائة إلى السبعمائة». وأما رواية أبي حمزة ومن وافقه على الخمسمائة، فمع كونها مؤيدة بموافقة بعض الرواة، فإنها لا تقوى على معارضة رواية الثوري من جهة حفظه وضبطه وزيادته في العدد. وبناءً على ذلك، يظهر وجه ترجيح الإمام البخاري لرواية الثوري، وهو ما رجحه الحافظ ابن حجر. ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، 6/178. ²¹ المصدر السابق.

²² المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي. إمتاع الأسماع بما للنبي صلى الله عليه وسلم من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع. تحقيق وتعليق محمد عبد الحميد النميسي. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩. (381/9).

²³ القضاعي، محمد بن سلامة. تاريخ القضاعي (عيون المعارف وفنون الأخبار). تحقيق جميل عبد الله المصري. رسالة علمية من جامعة أم القرى (ص238)، وينظر: العسقلاني، ابن حجر. التمييز في تلخيص تخريج أحاديث شرح الوجيز (التلخيص الحبير). تحقيق محمد الثاني بن عمر بن موسى. الرياض: دار أضواء السلف، ٢٠٠٧. (3179/6).

وقد ذكر ابن الطَّلّاع في مقدمة كتابه، أنه يذكر في كتابه أقضية رسول الله صلى الله عليه وسلم التي قضى بها، أو أمر بالقضاء فيها، إذ لا يحل لمن تقلّد الحكم بين الناس أن يحكم إلا بما أمر الله به عز وجل في كتابه، أو بما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه حكم بها، أو بما أجمع العلماء عليه، أو بدليل من هذه الوجوه الثلاثة، ثم قال: (واتفق مالك وأبو حنيفة والشافعي - رحمهم الله تعالى - على أنه لا يجوز لحاكم أن يحكم بين الناس حتى يكون عالماً بالحديث والفقه معاً مع عقل وورع)²⁴.

فهذه القضايا قد جُمعت ودونت وعمل بها الخلفاء الأربعة بعده صلى الله عليه وسلم، ثم تبعهم عليها الأمراء والخلفاء الذين تولّوا الحكم الإسلامي بعدهم.

4- وثيقة الأمان لسُرّاقة بن مالك رضي الله عنه.

لم تكن الهجرة النبوية مجرد حدث انتقالي طارئ، بل شهدت المظاهر الأولى لتأسيس العهد والمواثيق المكتوبة التي تحكم العلاقات والدماء حتى في أصعب الظروف والمواقف الحرجة؛ إذ تجلّت عناية النبي ﷺ بإعطاء الأمان وتوثيقه كتابةً لحفظ الحقوق والوفاء بالذمم.

ومن أبرز الشواهد التاريخية على ذلك: وثيقة الأمان المكتوبة لسُرّاقة بن مالك؛ فعندما تبع سرّاقة النبي ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه أثناء طريق الهجرة ورأى دلائل النبوة حين غاصت قوائم فرسه في الأرض، فطلب الأمان، فأعطاه النبي ﷺ عهداً مكتوباً ليُشكّل هذا الكتاب وثيقة رسمية وحجة معتمدة، ففي حديث الهجرة الطويل، قال سُرّاقَةُ بْنُ جُعْثُمٍ رضي الله عنه: (فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ أَمْنٍ، فَأَمَرَ عَامِرُ بْنُ قُهَيْبَةَ فَكَتَبَ فِي رُفْعَةٍ مِنْ أَدِيمٍ، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

فهذا العهد من النبي صلى الله عليه وسلم كان مكتوباً على رَقٍّ²⁵ من جلد مدبوغ، وقد ذكر ابن كثير أنه قد روي أن أبا بكر هو الذي كتب لسُرّاقة هذا الكتاب. فالله أعلم²⁶.

وقوله: ((كتاب أمن)) أي: كتاب موادة ومصالحة وعلامة بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم، والحديث دليل على أن بعض أدوات الكتابة كانت حاضرة في حياتهم، وأنهم في أسفارهم ربما حملوا بعض هذه الأدوات لاحتياجهم إليها، ولا سيما سفر الهجرة الذي خطط له الرسول صلى الله عليه وسلم برهة من الوقت، فلا يبعد أن حمل معه هذه الآلات.

5- بداية وضع التاريخ للأمة الإسلامية.

لكلّ أمة تقويم خاص تستعمله، ويُعد جزءاً من هويتها وذاكرتها التاريخية، والأمة الإسلامية كذلك لها تقويمها الذي ارتبط بحدثٍ عظيم كان له أثرٌ بالغ في مجرى التاريخ، وهو الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.

²⁴ محمد بن فرج الأندلسي ابن الطَّلّاع، أقضية رسول الله ﷺ، تح. فارس فتحي أحمد (بيروت: دار البشائر الإسلامية، 2006)، ص. 7.

²⁵ كانوا يكتبون على: ألواح الخشب، الرقّ (الجلد الرقيق)، الصحف الورقية، الحجارة البيضاء الملساء، النحاس، الحديد، جريد النخل، عظام الإبل والغنم، وجلود الحيوان (الأدم). ينظر بحث محكم: أدوات الكتابة المستخدمة في الجمع الأول في العهد النبوي، الشيخ أ. د. عرفة بن طنطاوي، منشور على شبكة الألوكة.

²⁶ ابن كثير، إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية. تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي الجيزة: دار هجر، ١٩٩٧-١٩٩٩. (343/8)

فقد مثّلت الهجرة النبوية مرحلةً فاصلةً في تاريخ الإسلام؛ إذ انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين إلى المدينة، حيث قامت نواة المجتمع والدولة الإسلامية، ثم ما لبث الإسلام أن انتشر واتسعت دولته حتى أصبحت قوةً كبرى تنافس أعظم قوتين في ذلك العصر، وهما الفُرس والروم. والمشهور عند أهل العلم أن التاريخ بالهجرة النبوية إنما وُضع في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأنه هو الذي أمر بجعل الهجرة مبدأً للتاريخ، لكن جاءت روايات تدل على أن أصل التاريخ بالهجرة كان قبل خلافة عمر رضي الله عنه. فقد حكى أبو جعفر النحاس في «صناعة الكتاب» عن محمد بن جرير، أنه روى بسنده إلى ابن شهاب أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة- وكان قدومه في شهر ربيع الأول- أمر بالتاريخ، قال القلقشندي: وعلى هذا فيكون ابتداء التاريخ في عام الهجرة.²⁷ ونقل الزرقاني في شرح المواهب اللدنية عن المواهب اللدنية أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بالتاريخ وهو بقاء.²⁸

وذكر الحافظ جلال الدين السيوطي أنه وقف على مجموع بخط ابن القماح، نقل فيه عن ابن الصلاح أنه قال: ذكر أبو طاهر محمد بن محمّش الزيادي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَرخَ بالهجرة حين كتب الكتاب لنصارى نجران، وأقرَّ عليّاً رضي الله عنه أن يكتب فيه أنه كتب لخمس من الهجرة. وقال السيوطي تعليقاً على ذلك: «فالمؤرخ إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر تبعه».²⁹ وهذا لا يعني أن البدء الرسمي لهذا التقويم كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد ذكر المؤرخون أن اعتماد هذا التقويم رسمياً كان في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم الأربعاء، عشرون جمادى الآخرة، عام 17 هـ بعد شوري بين الصحابة؛ حيث أجمعوا على أن الهجرة هي الحدث الأعظم الذي فصل بين مرحلتَي الاستضعاف والتمكين، ونقل الدعوة من السر إلى العلن وتأسيس الدولة. وكان الاختيار أن يكون البدء للعام الهجري من شهر محرم لعام 1 هـ (الموافق 15 يوليو 622 م)، على الرغم من أن حدث الهجرة النبوية الشريفة لم يقع في هذا التوقيت؛ إذ تشير المصادر إلى أن وصول النبي ﷺ الفعلي كان يوم الاثنين، الثامن من ربيع الأول (الموافق 20 سبتمبر 622 م)، أي بعد انقضاء قرابة شهرين من مبدأ السنة الهجرية.³⁰

6- تَعَلَّمَ زيد بن ثابت رضي الله عنه لغة اليهود (العبرية أو السريانية):

وفي السنة الأولى للهجرة، أمر النبي ﷺ الصحابي الجليل زيد بن ثابت رضي الله عنه بتعلم كتابة اليهود (العبرية) أو (السريانية)؛ لأنه لا يأمنهم على كتبه ورسائله.

²⁷ القلقشندي، أحمد بن علي. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧-١٩٨٩.

²⁸ الزرقاني، محمد بن عبد الباقي. شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للقسطلاني. تحقيق محمد عبد العزيز الخالدي. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦.

²⁹ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن. الشماريخ في علم التاريخ. تحقيق عبد الرحمن حسن محمود. القاهرة: مكتبة الآداب، ١٩٩٨. (ص12).

³⁰ ينظر: البداية والنهاية لابن كثير (512/4).

فقد روى الترمذي في "جامعه" بسنده إلى زيد بن ثابت، أنه قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلّم له كلمات يهود، وقال: "إني والله ما آمن يهود على كتاب"، قال: فما مرّ بي نصف شهر حتى تعلّمته له، قال: فلما تعلّمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم، وإذا كتبوا إليهم قرأت له كتابهم. قال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح"³¹.

ثم قال الترمذي: (وقد روي من غير هذا الوجه عن زيد بن ثابت، وقد رواه الأعمش عن ثابت بن عبيد، عن زيد بن ثابت، يقول: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلّم السريانية). وفي الحديث دليل على مشروعية تعلم اللغات الأجنبية إذا ترتبت على ذلك مصلحة شرعية أو حاجة عامة للمسلمين؛ كأمن المكر، أو الدعوة إلى الله، أو ضبط المعاملات والمراسلات مع غير المسلمين، وكذلك نحن اليوم قد ربطت بيننا وبين أمم أخرى مصالح، فعلينا أن نعرف لغتهم وأساليبهم وثقافتهم. ووجود هذا النوع من الكتابة والقراءة بين اليهود والمسلمين يعني انتشار الكتابة في ذاك الوقت إلى حد مناسب.

وتعدّ الكتابة والمراسلة من التراتيب الإدارية والوسائل التنظيمية التي لا يُشترط أن يباشرها الحاكم (الأمير) بنفسه؛ بل له أن يستعين فيها بمن يثق بأمانته وكفاءته، ليتولى إعدادها وتوثيقها، ثم يُعرض الأمر على الحاكم لإقراره وإنفاذه بعد الاطلاع عليه؛ فهي من الأمور الإدارية والمدنية التابعة لسياسة الدولة وتنظيمها.

7- السجلات العسكرية والاستراتيجية

كان التدوين في العهد النبوي وسيلة مهمة في حفظ المعلومات وتنظيم شؤون الدولة، ولم يقتصر استعماله على المكاتبات والمعاهدات، بل شمل كذلك بعض التعليمات ذات الطابع العسكري والاستراتيجي، ولا سيما ما اقتضته طبيعة المهام من المحافظة على سرية المعلومات ودقة تنفيذ الأوامر. ومن شواهد الاعتماد على تدوين التعليمات العسكرية في العهد النبوي: سرية عبدالله بن جحش رضي الله عنه إلى (نخلة)³²؛ حيث سلّمه النبي ﷺ كتاباً مكتوباً ومختوماً، وأمره ألا يقرأه إلا بعد مسيرة يومين من المدينة من غير أن يستكره أحداً من أصحابه الذين كانوا معه، فلما فتح الكتاب وجد فيه التعليمات بالتوجه إلى (نخلة) بين مكة والطائف لرصد تحركات قريش واستطلاع أخبارهم³³. وكانت سرية عبد الله بن جحش هذه في جمادى الآخرة، وكانوا اثني عشر، وقيل: ثلاثة عشر، وقيل: ثمانية³⁴.

³¹ جامع الترمذي (439/4، رقم: 2715)، وقد علق البخاري في "صحيحه" "7195" بصيغة الجزم في الأحكام: باب ترجمة الحكام.

³² نخلة: هو موضع بالحجاز قريب من مكة، فيه نخل وزرع. انظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان. الطبعة الثانية. بيروت: دار صادر، ١٩٩٥. (381/8).

³³ محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تج. محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، 1967)، مج. 2، ص. 411؛ عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تج. مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلي (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1955)، ص. 411.

ابن هشام، عبد الملك. السيرة النبوية. تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلي. مجلدان. القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1955. (601/1).

³⁴ سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزّ أوغلي. مرآة الزمان في تواريخ الأعيان. تحقيق محمد بركات وآخرون. دمشق: دار الرسالة العالمية، ٢٠١٣. (192/3).

8- صحيفة المدينة (دستور المدينة المنورة).

تمثل صحيفة المدينة (أو دستور المدينة) أسمى مظاهر التنظيم الإداري والسياسي المكتوب في العهد النبوي؛ إذ صيغت بُعيد الهجرة النبوية لتكون بمثابة أول وثيقة دستورية مدنيّة تُنظّم العلاقة بين مختلف مكونات المجتمع المدني. وتضمنت الصحيفة سبعة وأربعين (47) بنداً تأسيسياً ركّزت على تنظيم التعايش السلمي، وإقرار الحقوق والواجبات المتبادلة بين المسلمين واليهود وسائر سكان المدينة، وإرساء مبدأ المسؤولية الأمنية والمالية المشتركة.

وقد جاء في بدايتها: (هذا كتابٌ من محمد النبي -[رسول الله]- بين المؤمنين والمسلمين من قريش و- [أهل]- يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم...) ³⁵.

وفي أثناء قيام يهود بني قريظة بالغدر بالمسلمين في غزوة الخندق، جاء: (أَنَّ كَعْبَ بْنَ أَسَدٍ نَقَضَ الْعَهْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدَعَا حَيَّيَّ بِالْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُمْ فَشَقَّهُ حَيَّي...) ³⁶.

ونظراً لكثرة ما كتب حول هذه الوثيقة وما تحتوي من الأحكام والبندود، فأكفني بالإشارة إليها وعدم التوسع من الكلام حولها.

9- المراسلات والكتب

ومن الشواهد المبكرة على استعمال الكتابة في العهد النبوي ما يتصل بمكاتبة ملوك البلاد، ولا سيما ما يتعلق بأمر المسلمين المهاجرين إلى بلادهم ورعايتهم. ومن ذلك ما ورد في شأن هجرة المسلمين إلى الحبشة، حيث يُروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى النجاشي (أَصْحَمَةُ بْنُ أُبَجَرَ)، ملك الحبشة، في شأن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ومن معه من المهاجرين.

ومع اتساع نطاق المراسلات الرسمية في العهد النبوي، وتوثيقها بالكتب المختومة، أرسل النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً إلى النجاشي مع عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه، بعد صلح الحديبية، يدعوه فيه إلى الإسلام، ويطلب إليه رعاية المهاجرين وتأمينهم، وتيسير عودتهم إلى المدينة.

ويمثل هذا الكتاب شاهداً على استعمال الكتابة في توثيق المراسلات النبوية وتنظيم العلاقات مع الملوك والحكام ³⁷.

وهذه الرسالة هي واحدة من تلك الرسائل الكثيرة التي أرسلها النبي ﷺ إلى الأمراء والملوك ورؤساء القبائل، وربما أوصل بعض الباحثين عددها إلى 104 رسالة، وهذا كمٌّ كبيرٌ من الكتب والرسائل، فأردت الإشارة إلى تلك المجموعة حتى لا يُغفل عنها ³⁸.

³⁵ ينظر: سيرة ابن هشام 119/2؛ أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأموال، تحقيق خليل محمد هراس (بيروت: دار الفكر، د.ت.)، ص 166.

³⁶ محمد بن عمر الواقدي، كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونس (لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، 1966م)، (2/456).

³⁷ ابن حبان، محمد بن حبان. الثقات. حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، ١٩٧٣. (8/2)، الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري). (2/652).

³⁸ محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط. 6 (بيروت: دار النفائس، 1987)، ص. 15-25؛ عبد العلي الكتاني، التراتيب الإدارية (التراتب الإدارية والعمالات والشرط والصناعات التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية)، تحقيق عبد الله الخالدي (بيروت: دار الأرقم)، ص. 182.

10- صُحُفُ الصَّحَابَةِ (الصَّحَائِفُ الْحَدِيثِيَّة)

كان الصحابة رضي الله عنهم يعتمدون في حفظ السنة أساساً على قوة الحفظ وجودة الضبط، وكان بعضهم يتحرج من كتابة الحديث خشية أن يؤدي الاعتماد على الكتابة إلى ضعف الحفظ، أو أن ينشغل الناس عن القرآن الكريم بغيره. قال إسماعيل بن إبراهيم بن عليّة البصري (ت 200هـ): «إن الصحابة إنما كرهوا الكتابة؛ لأن من كان قبلكم اتخذوا الكتب فأعجبوا بها، فكانوا يكرهون أن يشتغلوا عن القرآن»³⁹. وقال الخطيب البغدادي: «إن كراهة من كره الكتابة من الصدر الأول، إنما هي لثلا يضاها بكتاب الله تعالى غيره، أو يشتغل عن القرآن بسواه»⁴⁰.

غير أن كراهة الكتابة عند بعض الصحابة لم تكن مانعةً من كتابة ما تيسر من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم أذن في كتابة حديثه⁴¹، وقد وجدت ما يقارب خمسة عشر صحيفة حديثية للصحابة في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، منها، إحدى عشرة صحيفة محفوظة بالأسانيد الصحيحة⁴².

ومن أشهر تلك الصُّحُف: صحيفة أبي بكر، وعمر، وعلي، وعبد الله بن عمرو، وابن عباس، وأبي هريرة، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم.

ويتجلى البعد المنهجي في قوله ﷺ: «يَلْعَوُا عَنِّي»⁴³ في كونه توجيهاً يقتضي بالضرورة جواز تدوين العلم وتقييده؛ إذ يستحيل تحقيق غاية التبليغ واكتفائها دون كتابة، في ظل ما جُبل عليه الإنسان من نسيانٍ وتعرضٍ للخطأ عند الاعتماد المحض على الذاكرة المجردة. ومن ثَمَّ، فإن الإعراض عن التدوين يُفضي إلى فوت شطرٍ كبير من السنة، وحرمان الأجيال المتأخرة من معرفة أصول الشريعة.

³⁹ الخطيب البغدادي، تقييد العلم، تحقيق يوسف العش (بيروت: دار إحياء السنة النبوية، 1974م)، ص 57.

⁴⁰ المصدر السابق (ص 93).

⁴¹ قد تتبّع العلماء مسألة التدوين الحديثي بالتوفيق بين نهيه ﷺ وإذنه؛ فحملوا النهي إمّا على خشية اختلاط الحديث بالقرآن في بداية النزول قبل الأمن من الالتباس، أو على النهي عن جمعها في صحيفة واحدة، أو على النهي لمن يُخشى اتكاله على المكتوب وإهماله الحفظ الصوري. بينما جاء الإذن ناسخاً للنهي عند الأمن من الالتباس، أو ترخيصاً لمن خشي عليه النسيان وضبطاً للمرويات؛ وهو ما أعلّ بسببه حديث النهي وقفه على أبي سعيد الخدري رضي الله عنه لدى الإمام البخاري وطائفة. ورغم كراهة المتقدمين للكتابة حرصاً على استمرار الحفظ، إلا أن التحول المنهجي تقرر خوف ضياع العلم؛ فدوّن رسمياً بجهود ابن شهاب الزهري بأمر عمر بن عبد العزيز، ليتسع بعدها التصنيف وتتأسس حركة كتابة الحديث. ينظر: مقدمة ابن الصلاح (ص 182)، وفتح الباري (208/1).

وقال ابن القيم رحمه الله: (قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم النهي عن الكتابة والإذن فيها، والإذن متأخر، فيكون ناسخاً لحديث النهي، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال في غزاة الفتح: «اكتبوا لأبي شاه» يعني خطبته التي سأل كتابتها، وأذن لعبد الله بن عمرو في الكتابة، وحديثه متأخر عن النهي لأنه لم يزل يكتب ومات وعنده كتابه، وهي الصحيفة التي كان يسميها «الصادقة»، ولو كان النهي عن الكتاب متأخراً لمحاها عبد الله لأمر النبي صلى الله عليه وسلم بمحو من كتب عنه غير القرآن، فلما لم يحها وأثبتها دل على أن الإذن في الكتابة متأخر عن النهي عنها، وهذا واضح، والحمد لله). ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته. تحقيق علي بن محمد العمران ونبيل بن نصار السندي. الطبعة الثانية. الرياض: دار عطاءات العلم؛ بيروت: دار ابن حزم، ٢٠١٩. (576/2).

⁴² يراجع: البحث المحكم للدكتور سلطان بن عبد الله بن عثمان، صحف الصحابة، جمع ودراسة، جامعة المجمعة، السعودية.

⁴³ صحيح البخاري (300/3، رقم: 3461).

وقد أثرت الاختصار في هذه الفقرة خصوصاً، لكونها تتعلق بكتابة الحديث النبوي بالخصوص، وهو ما لم أرده في بحثي هذا ابتداءً، لكن لو رأينا إلى بعض محتويات الصّحف، فقد اشتملت على قضايا الديات، والصدقات، والكفارات، وغير ذلك من أمور الدولة والمهام الرئيسة⁴⁴.

نتائج البحث

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد:

فقد خلصت هذه الدراسة الاستقرائية التحليلية حول «أدلة الكتابة في العهد النبوي» إلى جملة من النتائج، يُمكن إجمالها في النقاط الآتية:

- 1- أثبتت بالشواهد المذكورة في العهد النبوي أن الكتابة والتدوين لم يتكونا كظاهرة طارئة أو استثنائية، بل كانت ممارسة قائمة ومستخدمة وظيفياً في الشؤون ذات الأهمية بالغة الأثر في المجتمع المدني.
- 2- كشفت النماذج التطبيقية عن شمول التوثيق الكتابي لمختلف القطاعات في الدولة؛ حيث شملت: الأفضية والأحكام القضائية، المعاهدات والمواثيق السياسية، المراسلات الدبلوماسية للملوك والأمراء، والتدوينات الإدارية.
- 3- دلت الشواهد الموثقة على أن كتابة الأحاديث النبوية وتقييدها قد تمّا في حياة النبي ﷺ وتحت إشرافه، انطلاقاً من مكانة كلامه الشريف بوصفه المبيّن والمفسّر للقرآن الكريم، ومقتضى التكليف النبوي بالتبليغ.
- 4- دلت الأدلة الاستقرائية على أن الرأي القائل بعدم تدوين السنة في العصر النبوي بداعي أمية المجتمع أو قلة أدوات الكتابة؛ ليست صحيحة، حيث أثبتت المعطيات التاريخية وجود بنية توثيقية مبكرة شكلت اللبنة الأساسية لحفظ السنة النبوية وتدوينها رسمياً فيما بعد.

التوصيات والمقترحات

أقترح كتابة الأبحاث في المسائل الدقيقة التي تخدم مواضيع حجية السنة النبوية بأساليب منطقية، ومن ذلك:

- 1- منهجية التوثيق الشفهي والكتابي في السنة النبوية مقارنةً بالأعراف القانونية غير المدونة: الدستور البريطاني نموذجاً.
- 2- المرويات المدونة في الصحف الحديثية المبكرة وأثرها في نقض دعوى "الفجوة الزمانية" عند المستشرقين: دراسة استقرائية نقدية.
- 3- تحول المناهج النقدية في دراسات الاستشراق المعاصر للسنة النبوية: دراسة مقارنة بين المدرسة التشكيكية (جولدتسمير وشاخت) والمدرسة المراجعة (موتسكي والأعظمي).

⁴⁴ ينظر على سبيل المثال: صحيفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إعداد: فهد بن صقر الروقي، مراجعة وتعليق: بهار بن عبد الرحمن العتيبي، تقديم: محمد بن حسن آل الشيخ وآخرون، دار أجيال التوحيد، سنة النشر. فقد جمع الباحث فيها مختلف الأحاديث الواردة عن هذه الصحيفة، وخلص إلى أنها تضمنت أحكاماً شرعية جلية؛ منها بيان أحكام الديات (العقل) وكيفية تحلل العاقلة لها، ووجوب فكاك الأسرى والنسك، وتأكيد تكافؤ دماء المسلمين وأنه لا يُقتل مسلم بكافر، إضافة إلى حرمة المدينة المنورة وإثم من أحدث فيها حدثاً أو أوى محدثاً، وحدة ذمة المسلمين وأمانهم بحيث يسعى به أذناهم وتلزم حمايته على الجميع.

References

- Abū ‘Ubayd al-Qāsim ibn Sallām. Kitāb al-Amwāl [The book of revenue]. Edited by Khalīl Muḥammad Harrās. Beirut: Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, 1986.
- al-Balādhurī, Aḥmad ibn Yahyá ibn Jābir. Futūḥ al-Buldān [Conquests of the lands]. Beirut: Dār wa-Maktabat al-Hilāl, 1988.
- al-Bukhārī, Muḥammad ibn Ismā‘īl. Ṣaḥīḥ al-Bukhārī. Supervised by Muḥammad Zuhayr al-Nāṣir. 9 vols. Beirut: Dār Ṭawq al-Najāh, 2001.
- Goldziher, Ignaz. Muslim Studies (Muhammedanische Studien). Edited by S. M. Stern. Translated by C. R. Barber and S. M. Stern. London: George Allen & Unwin, 1971.
- Ḥamīdullāh, Muḥammad. Majmū‘at al-Wathā‘iq al-Siyāsiyyah lil-‘Ahd al-Nabawī wa-al-Khilāfah al-Rāshidah [Collection of political documents of the Prophetic and Rightly Guided Caliphate era]. 6th ed. Beirut: Dār al-Nafā‘is, 1987.
- al-Ḥamawī, Yāqūt. Mu‘jam al-Buldān [Dictionary of countries]. 5 vols. 2nd ed. Beirut: Dār Ṣādir, 1995.
- Ibn ‘Abd al-Barr, Yūsuf ibn ‘Abd Allāh. Al-Istī‘āb fī Ma‘rifat al-Aṣḥāb. Edited by ‘Alī Muḥammad al-Bijāwī. 4 vols. Beirut: Dār al-Jīl, 1992.
- Ibn Ḥajar al-‘Asqalānī, Aḥmad ibn ‘Alī. Faṭḥ al-Bārī bi-Sharḥ Ṣaḥīḥ al-Bukhārī. Edited by Muḥibb al-Dīn al-Khaṭīb and Quṣayy Muḥibb al-Dīn al-Khaṭīb. 13 vols. Cairo: Al-Maṭba‘ah al-Salafiyyah, 1970.
- . Al-Talkhīṣ al-Ḥabīr. Edited by Muḥammad al-Thānī ibn ‘Umar ibn Mūsá. 7 vols. Riyadh: Dār Aḍwā’ al-Salaf, 2007.
- Ibn Ḥanbal, Aḥmad. Musnad Aḥmad. Edited by Shu‘ayb al-Arnā‘ūṭ et al. 50 vols. Beirut: Mu‘assasat al-Risālah, 2001.
- Ibn Ḥibbān, Muḥammad. Al-Thiqāt [The trustworthy transmitters]. 9 vols. Hyderabad: Dā‘irat al-Ma‘ārif al-‘Uthmāniyyah, 1973.
- Ibn Hishām, ‘Abd al-Malik. Al-Sīrah al-Nabawiyyah [Biography of the Prophet]. Edited by Muṣṭafá al-Saqqā, Ibrāhīm al-Ibyārī, and ‘Abd al-Ḥafīz Shalabī. 2 vols. Cairo: Muṣṭafá al-Bābī al-Ḥalabī, 1955.
- Ibn Kathīr, Ismā‘īl ibn ‘Umar. Al-Bidāyah wa-al-Nihāyah [The beginning and the end]. Edited by ‘Abd Allāh ibn ‘Abd al-Muḥsin al-Turkī. 21 vols. Giza: Dār Hajar, 1997–1999.
- Ibn Qayyim al-Jawziyyah, Muḥammad ibn Abī Bakr. Tahdhīb Sunan Abī Dāwūd. Edited by ‘Alī ibn Muḥammad al-‘Umrān and Nabīl ibn Naṣṣār al-Sindī. 3 vols. 2nd ed. Riyadh: Dār ‘Aṭā’at al-‘Ilm; Beirut: Dār Ibn Ḥazm, 2019.
- Ibn al-Ṣalāh, ‘Uthmān ibn ‘Abd al-Raḥmān. Muqaddimat Ibn al-Ṣalāh [Introduction to Hadith studies]. Edited by Nūr al-Dīn ‘Itr. Damascus: Dār al-Fikr, 1986.
- Ibn Sallām al-Jumahī, Muḥammad. Ṭabaqāt Fuḥūl al-Shu‘arā’ [Classes of the great poets]. Edited by Maḥmūd Muḥammad Shākir. 2 vols. Jeddah: Dār al-Madanī, 1974.
- Ibn al-Ṭallā‘, Muḥammad ibn Faraj al-Andalusī. Aqdiyat Rasūl Allāh [Judgments of the Messenger of Allah]. Edited by Fāris Faṭḥī Aḥmad. Beirut: Dār al-Bashā‘ir al-Islāmiyyah, 2006.
- al-Jāhīz, ‘Amr ibn Baḥr. Kitāb al-Ḥayawān [The book of animals]. Edited by ‘Abd al-Salām Muḥammad Hārūn. 8 vols. Cairo: Muṣṭafá al-Bābī al-Ḥalabī, 1965.
- al-Kattānī, ‘Abd al-Ḥayy. Al-Tarātib al-Idāriyyah [Administrative arrangements]. Edited by ‘Abd Allāh al-Khālidi. 2 vols. Beirut: Dār al-Arqam, n.d.

- al-Khaṭīb al-Baghḍādī, Abū Bakr Aḥmad ibn ‘Alī. Taqyīd al-‘Ilm. Edited by Youssef Eche. Beirut: Dār Ihya’ al-Sunnah al-Nabawiyyah, 1974.
- al-Maqrīzī, Taqī al-Dīn Aḥmad ibn ‘Alī. Imtā’ al-Asmā’. Edited by Muḥammad ‘Abd al-Ḥamīd al-Numaysī. 15 vols. Beirut: Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, 1999.
- al-Mas’ūdī, ‘Alī ibn al-Ḥusayn. Al-Tanbīh wa-al-Ishrāf [Notification and inspection]. Beirut: Dār wa-Maktabat al-Hilāl, 1981.
- al-Qudā’ī, Muḥammad ibn Salāmah. ‘Uyūn al-Ma‘ārif wa-Funūn Akhbār al-Khalā’if [History of al-Quda’i]. Edited by Jamīl ‘Abd Allāh al-Miṣrī. Master’s thesis, Umm al-Qurā University, Makkah, n.d.
- al-Qalqashandī, Aḥmad ibn ‘Alī. Ṣubḥ al-A’shā fī Ṣinā‘at al-Inshā. Commentary by Muḥammad Ḥusayn Shams al-Dīn. 14 vols. Beirut: Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, 1987–1989.
- Sibt Ibn al-Jawzī, Yūsuf ibn Qiz-oghli. Mir’āt al-Zamān fī Tawārīkh al-A’yān [Mirror of time]. Edited by Muḥammad Barakāt et al. 23 vols. Damascus: Dār al-Risālah al-‘Ālamiyyah, 2013.
- al-Sijistānī, Abū Dāwūd Sulaymān ibn al-Ash’ath. Sunan Abī Dāwūd. Edited by Muḥammad Muḥyī al-Dīn ‘Abd al-Ḥamīd. Beirut: Al-Maktabah al-‘Aṣriyyah, 1999.
- al-Suyūfī, Jalāl al-Dīn ‘Abd al-Raḥmān. Al-Shamārīkh fī ‘Ilm al-Tārīkh. Edited by Ibrāhīm al-Sāmarrā’ī. Riyadh: Dār al-Liwā’, 1979.
- al-Ṭabarī, Muḥammad ibn Jarīr. Jāmi‘ al-Bayān ‘an Ta’wīl Āy al-Qur’ān (Tafsīr al-Ṭabarī). Edited by ‘Abd Allāh ibn ‘Abd al-Muḥsin al-Turkī. 26 vols. Giza: Dār Hajar, 2001.
- . Tārīkh al-Rusul wa-al-Mulūk (Tārīkh al-Ṭabarī) [History of the prophets and kings]. Edited by Muḥammad Abū al-Faḍl Ibrāhīm. 11 vols. Cairo: Dār al-Ma‘ārif, 1967–1977.
- al-Tilimsānī, Muḥammad ibn Abī Bakr (Ibn al-Shaykh). Tārīkh al-Khamīs fī Aḥwāl Anfas Nafīs [History of Thursday]. 2 vols. Beirut: Dār Ṣādir, n.d.
- al-Tirmidhī, Muḥammad ibn ‘Īsā. Al-Jāmi‘ al-Kabīr (Sunan al-Tirmidhī). Edited by Bashshār ‘Awwād Ma’rūf. 6 vols. Beirut: Dār al-Gharb al-Islāmī, 1998.
- al-Wāqidī, Muḥammad ibn ‘Umar. Kitāb al-Maghāzī. Edited by Marsden Jones. 3 vols. London: Oxford University Press, 1966.
- al-Zurqānī, Muḥammad ibn ‘Abd al-Bāqī. Sharḥ al-Zurqānī ‘alā al-Mawāhib al-Laduniyyah. Edited by Muḥammad ‘Abd al-‘Azīz al-Khālidi. 12 vols. Beirut: Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, 1996.